رجاء النقاش

التعريب تخريب

شعار من؟

حوار حول عروبة الجزائر



1989



التعريب تخريب ... شعار من ؟

سألت صديقي الجزائري ونحن نجلس في منتصف احدى الليالي الحلوة على شاطيء البحر في مدينة الجزائر :

– اي نوع من الخبراء تحتاج اليه الجزائر اكثر من غيره ؟

وكنت اقارن في عقلي بين حاجة الجزائر الى الاطباء وحاجتها الى المهندسين او المدرسين ، ولكني فوجئت بالصديق الجزائري يقول :

– اننا نحتاج أولاً وقبل كل شيء الى مدرس اللغة العربية ثم الى الخطاط الذي يستطيع ان يكتب خطاً جميلاً باللغة العربية .

وأخذ الصديق يروي – وانا غارق في دهشتي – قصة الطبيب العربي الذي ذهب ليعمل في مدينة (تيارت) .. وبعد فترة اكتشف المواطنون هناك ان الطبيب يجيد كتابة الخط العربي ، وتحولت عيادة الطبيب الى مكتب لكتابة

اللافتات .. حيث كان يقضي في هذا العمل اكثر مما كان يقضي في معالجة المرضى .

وقد يكون في حديث الصديق الجزائري عن حاجة الجزائر الى الخطاط اكثر من حاجتها الى الطبيب بعض المبالغة او كثير من المبالغة ، ولكن الحقيقة أن (الحنين) الى اللغة العربية يمثل ظاهرة اساسية في الجزائر . وذلك لأن استعادة اللغة العربية هو مظهر اساسي من مظاهر الاستقلال والتخلص من الاستعمار . فمنذ اللحظات الاولى للاستعمار الفرنسي في الجزائر وهو يحاول ابادة اللغة العربية ، فكان يفرض على الناس ان يتعلموا الفرنسية . وكان المدرسون الفرنسيون يذهبون الى ابعد قرية في الجزائر حتى يتمكنوا من تعليم الناس اللغة الفرنسية تمهيداً للقضاء على اللغة العربية كمظهر اساسي من مظاهر الشخصية القومية .

وأخذ الفرنسيون يطبعون كل شيء بالطابع الفرنسي .. اللافتات التي ترفعها الحوانيت والمحال العامة بالفرنسية، اسماء الشوارع بالفرنسية .. حتى اسماء المدن العربية تم تغيير كثير منها الى اسماء فرنسية ، فمدينة عنابة اصبح اسمها (بون) ومدينة سكيكده اصبح اسمها (فليبفيل) .. واسماء اخرى كثيرة تم تحويلها من العربية الى الفرنسية .

ولكن الفرنسيين مع ذلك لم يستطيعوا القضاء على اللغة العربية .. فقد ظل الفلاحون والبدو وابناء الاحياء الشعبية في المدن يتحدثون العربية ويحافظون عليها ، وقد فرضت

جبهة التحرير في المناطق الحربية ان تكون اللغة الاساسية هي اللغة العربية بين الجنود والضباط ، مع تحريم استعمال الفرنسية .

وكان الخطأ الذي وقع فيه الفرنسيون أنهـم ظنوا ان اللغة العربية لغة بدائية ، مثل بعض اللغات الافريقية التي تمكنوا من ابادتها فعلاً ، وظنوا ان اللغة العربية لن تصمد امام الغزو اللغوي الفرنسي كما عجزت تلك اللغات الافريقية عن الصمود ، وكما عجزت لغه الهنود الحمر في امريكا عن الصمود امام اللغة الانجليزية التي اكتسحت تلك اللغـة البدائية وقضت عليها .

ولكن اللغة العربية صمدت ، لانها هي لغة الشعب القومية ، ولانها لغة متقدمة وليست لغة بدائية ، ولانها كانت في يوم ما لغة لحضارة حقيقية كبرى سواء في المشرق العربي او في المغرب العربي ، وقد لعبت اللغة العربية في شمال افريقيا بالذات دوراً حضارياً كبيراً اعترف به الاوروبيون انفسهم .

ويكفي ان نقول ان اللغة العربية هي لغة ابن خلدون الذي ولد ونشأ في شمال افريقيا ، والذي يعتبر حتى الآن واحداً من أعظم علماء الاجتماع في العالم كله .

وفي ظروف قاسية من الضغط والارهاب استطاع الفرنسيون ان يخلقوا بعض مظاهر الانحلال في اللغة العربية في الجزائر ، وخاصة في المدن ، حيث اصبحت اللغة الفرنسية لغة اساسية للتعامل . وقد حقق الفرنسيون انتصارهم هذا على اللغـــة

العربية بعد مجهود طويل دام مئة وثلاثين سنة ، ولكنهم عجزوا عن ابادة هذه اللغة ، عجزوا عن طردها من ضمير الشعب .. بحيث يفقدها نهائياً — كما كان الفرنسيون يريدون — وبحيث ينسى اي رابطة بينه وبينها .

وبعد الاستقلال بدأت الجزائر تخوض معارك صعبة في جبهات متعددة ، وكان من اصعب هذه المعارك معركة التعريب . ولذلك فان خطب بن بللا لا تخلو ابداً من الاشارة الى معركة التعريب .

ومقاومة التعريب تستند الى اكثر من وجهة نظر ، وهي تبدأ عادة بين بعض المتفرنسين الذين يقولون : ان الجزائر ليست عربية وانما هي دولة افريقية يجب أن تستفيد من الحضارة الفرنسية والثقافة الفرنسية . واحياناً يقول بعضهم انها دولة متوسطية نسبة الى البحر المتوسط . واحياناً يقولون انها مجموعة من الجنسيات واللغات . ولنأخذ مثالاً على هؤلاء هو — للاسف — الكاتب المعروف (كاتب ياسين) ، وهو احد ادباء الجزائر الموهوبين الذين يكتبون باللغة الفرنسية والذين نالوا شهرة واسعة في اوروبا .. يقول كاتب ياسين :

« ان الجزائر متعددة الجنسيات وهي امة غنية من حيث انها متعددة الجنسيات » .

ثم يطالب كاتب ياسين بأن تكون في الجزائر — مثل يوغوسلافيا — عدة لغات : اللغة الفرنسية واللغة البربرية ، واللغة العربية وهي — على حد تعبير كاتب ياسين — « ليست

لغة راسخة القدم في الجزائر » اما الفرنسية فما دام الاستعمار قد انتهى فلم يعد هناك ما يدعو الى الخجل من استعمال هذه اللغة . فاذا ذهبت الى الجزائر – كما يقول كاتب ياسين ايضاً – « فانك تتكلم الفرنسية حتى داخل بيتك وحتى ولو كان من بين اسرتك شهداء » .

مثل هذا المنطق يرد عليه بن بللا رداً حاسماً بصرخته الشهيرة (الثلاثية) :

نحن عرب . نحن عرب . نحن عرب .

وهذا التأكيد من جانب بن بللا لا يعني ابداً أن عروبة الجزائر هي عروبة عنصرية ، كما يحاول اعـداء الثورة الجزائريون أن يصوروا الامر . ان بن بللا لا يقول بأفضلية العنصر العربي على أي عنصر آخر ولا يقول ابداً بأن العروبة هي صلة من صلات (الدم) بين المواطنين .. بحيث أن كل مواطن لا ينتسب الى القبائل العربية القديمة لا يعتبر عربياً. ولكن (العروبة) عند بن بللا بوضوح هي « وحدة المصير المشترك بين الجزائر وبين ابناء الوطن العربي في كل مكان آخر . فأي مشكلة تحل بالوطن العربي تؤثر في الجزائر تأثيراً مباشراً . وأي تقدم أو انتصار في الوطن العربي يؤثر – مباشرة – على الجزائر . وقد كانت تجربة الثورة الجزائرية نفسها خير مثال على ذلك . فقد نجحت الثورة الجزائرية عندما مهد لها نجاح الثورة المصرية ولولا نجاح الثورة المصرية لتأخرت ثورة الجزائر وتعطلت الى حد بعيد .. وهذا أمر

واضح للجميع . وهكذا ، فان معنى العروبة هو (وحدة المصير) وليس وحدة الاصل والعنصر .. وليس وحدة الدم ، لذلك فلا معنى على الاطلاق أن يقال ان في الجزائر جنسيات مختلفة . فالجزائر حسب مقياس وحدة المصير مرتبطة تماماً بالعرب . وهي مرتبطة كلها بمن فيها من ملايينها العشرة وفي مقدمتهم قبائل البربر بالمصير العربي ، وأي طعنة يصاب بها العرب سوف تصل في الوقت نفسه الى قلب الجزائر ، وابناء القبائل كما يسمونهم في الجزائر مرتبطون عاطفياً ببقية ابناء الجزائر عن طريق الدين ، حيث يمثل الاسلام عاملاً حاسماً من عوامل الربط بين قبائل البربر وبقية الجزائريين . وما زلت اذكر الكلمة التي القاها الكولونيل « محمد ولد الحاج » قائد منطقة القبائل عندما زاره وفد الصحفيين العرب .. لقد كانت النقطة الاساسية التي أثارها في خطابه هي اعتذاره عن لغته العربية (المكسرة) . ثم قال قائد الولاية : ان لغته العربية الضعيفة هي مظهر من مظاهر الاستعمار الطويل الذي أصاب الجزائر . وأنه يرجو أن يأتي اليوم القريب الذي يتكلم فيه ابناء الجزائر لغة عربية صحيحة ، هي لغة الاسلام ، ولغة الاجداد في بلادنا .

ومن بين مساعدي بن بللا وانصاره السيد « محمدي سعيدي » وهو نائب رئيس الوزراء ووزير قدماء المجاهدين .. ومحمدي سعيدي الذي يؤيد بن بللا في خطه العربي هو احد زعماء القبائل المعروفين .

وهذا كله يشير الى ان المشكلة التي يريد البعض اثارتها بين قبائل البربر في الجزائر وبين بقية السكان هي مشكلة زائفة مصطنعة ، لا أصل لها عند سكان القبائل انفسهم ، ولكن (الاصل) قائم في الخطة الاستعمارية التي تعمل دائماً على اثارة الانقسام بين ابناء الشعب الواحد ، على اعتبار ان هذا الانقسام عادة هو عنصر جوهري من عناصر اضعاف الشعب امام القوة الخارجية .

وقد قام الفرنسيون بجهود مستميتة لاحياء لغة البربر ، ووضع قواعد وقواميس لها ، كل ذلك رغم انها لغة غير مكتوبة ، وبها الكثير جداً من الكلمات العربية ، ولكن الفكرة الأساسية عند الفرنسيين كانت قائمة على اساس تقوية هذه اللغة ودعمها ، لعل ذلك يعود في النهاية الى أن يطالب القبائليون بالانفصال عن الجزائر ، واقامة دولة مستقلة .

ومن الواضح أن الفرنسيين رغم كتبهم ومعاجمهم المختلفة قد فشلوا الى حد بعيد في هذه الخطة فقد كانت مقاومة جبال القبائل لهم اثناء الثورة اشرس واعنف مقاومة لقيها الفرنسيون خلال حربهم اليائسة ضد الجزائر . وكل القبائليين الذين التقينا بهم في الجزائر كانوا من اكثر المتحمسين للتعريب ، ومن اكثر الذين يحرصون على استخدام اللغة العربية بين ابناء البلاد . على أن الفرنسيين والمتفرنسين لا ييأسون من اثارة الحجج ضد اللغة العربية ، فهم اذا عجزوا عن التشكيك في عروبة الجزائر أو عجزوا عن خلق انقسامات

اقليمية بين الجزائر المختلفة فانهم يلجأون الى حجة جديدة .

فاللغة العربية — في نظر الفرنسيين والمتفرنسين — ليست لغة حضارة ، انها ستعيد الجزائر الى القرون الوسطى ، الى عصر الخرافات ، وعصر (الحذلقة) اللفظية التي لا يمكن أن تفيد الجزائر بحال من الاحوال . ويرفع هؤلاء شعاراً يقول : ان التعريب تخريب .

لماذا تعود الجزائر الى اللغة العربية ، وهي الآن تتكلم بالفعل لغة من لغات الحضارة العصرية هي اللغة الفرنسية ، التي تستطيع وحدها ان تجعل الجزائريين يعيشون في القرن العشرين بمشاكله ، ومظاهر تقدمه المختلفة ؟ وكيف — في رأي هؤلاء — يمكن تدريس الطب او الهندسة باللغة العربية ؟

والحقيقة المؤسفة أن هناك بعض المثقفين الجزائريين يتبنون هذا الاتجاه ، ويشيعون هذا الرأي حتى في صفوف المسؤولين عن التربية والتعليم .

ولكن رغم هذه المظاهر ، فان التيار الرئيسي في الشعب وحزب جبهة التحرير يعادي هذا الاتجاه عداء كبيراً .

فمن الممكن أن تكون حجة هؤلاء مقبولة نوعاً ما ، لو أن الفرنسيين استطاعوا أن (يفرنسوا) الجزائر كلها ، ولكنهم — كما أشرت من قبل — لم يستطيعوا ان ينشروا اللغة الفرنسية إلا في المدن ، اما في الريف وبين البدو فقد عجزوا عن ذلك تماماً ، والفلاحون والبدو هم جزء أساسي من الشعب الجزائري ، بل هم قاعدة هذا الشعب ، وهم

لا يعرفون سوى العربية .

فما هي – مثلاً – قيمة الطبيب الذي يذهب الى القرية الجزائرية وهو لا يعرف سوى الفرنسية ؟ وما هي قيمة المهندس الذي يريد ان يقيم مشروعاً في إحدى القرى إذا ذهب الى الريف ولم يفهمه احد ؟

إن اللغة العربية هي لغة الشعب ، ولذلك فمن الواجب أن تكون هذه اللغة هي لغة الدولة . صحيح أن الفلاحين والبدو في الجزائر يعانون كثيراً من المشاكل .. انهم ممزقون مرهقون يعيشون في ظروف صعبة ، لأنهم تحملوا النصيب الاكبر من أعباء الثورة ، ودفعوا الثمن كما لم يدفعه غيرهم من ابناء الشعب . دفعوا هذا الثمن من خبزهم ودمهم معاً .

ولكن أليس من حقهم أن يكونوا بعد ذلك أساس الثورة ؟. إن احداً من الثوريين الحقيقيين في الجزائر لا يختلف في ذلك . إن الثورة يجب أن تتجه الى هؤلاء وتنبع من مصالحهم اولاً وقبل كل شيء . ولذلك فإن بن بللا يردد دائماً :

« لا اشتراكية بدون تعريب »

فالاشتراكية – من ناحية – تهدف الى تحقيق مصالح الجماهير الشعبية .. ولغة هذه الجماهير هي العربية ، ولذلك فإن الاشتراكية لا يمكن تحقيقها بدون التعريب ، فالموظف والخبير سيخدمان – في ظل الاشتراكية – شعباً يتكلم العربية. ومن هنا فليس من المقبول أن يتكلم الموظف الفرنسية ويجهل العربية ، وليس من المقبول أن يتكلم الخبير الفرنسية

ويجهل العربية .

على أن ارتباط الاشتراكية بالتعريب له وجه آخر . فالثورة الاشتراكية في الجزائر تستند استناداً أساسياً على (ظهرها) العربي ، كما استندت ثورة الجزائر في حرب التحرير على ظهرها العربي ايضاً .. فقد كانت تعتمد على أسلحة ومساعدات تأتيها من العواصم العربية، وعلى الأخص من القاهرة ، والموقف الآن لا يختلف على الإطلاق .

فبعد الاستقلال مباشرة ترك المهندسون الفرنسيون والأطباء الفرنسيون والفنيون الفرنسيون — ترك معظم هؤلاء الجزائر وعرضوا كل شيء فيها للتوقف والخراب .

وهذه الظاهرة تؤكد الحقيقة الآتية :

ان الخبرة العربية هي وحدها الضمان لتحقيق الاشتراكية في الجزائر . فالخبرة العربية هي التي تفهم لماذا تتجه الجزائر الى الاشتراكية .

والخبرة العربية لا مصلحة لها في عرقلة الاشتراكية في الجزائر ... بل ان مصلحتها الكاملة — على العكس — تتفق مع نجاح الاشتراكية في الجزائر . وبشكل اكثر وضوحاً فإن الطبيب المصري أو المهندس المصري أو المدرس المصري .. هؤلاء كلهم يستطيعون ان يشاركوا في تجربة الجزائر الاشتراكية مشاركة حقيقية فعالة عن فهم واقتناع .. ثم بعد ذلك فان هؤلاء الخبراء لا يمكن ان يخونوا التجربة الجزائرية بسبب خلاف على الإدارة أو على الأجر ، كما فعل الفرنسيون عندما

احسوا أن الإدارة في الجزائر لم تعد إدارة فرنسية ، ولم يكن من المقنع لهم بحال من الأحوال ان تكون هذه الإدارة اشتراكية .. فأما ان تكون هذه الإدارة ، فرنسية ، أو فلتذهب الجزائر — من وجهة نظرهم — الى الجحيم .

بالإضافة الى ذلك كله فإن الخبير المصري مثلاً اصبح متمرساً بمشاكل التنمية الاشتراكية وأصبحت لديه القدرة على احتمال هذه المشاكل ، فقد يكون الطبيب العربي أقل علماً من الطبيب الفرنسي ، ولكن الطبيب العربي يستطيع ان يعيش في أعماق الريف ، ويستطيع ان يحتمل الحياة الصعبة بين الفلاحين لمدة طويلة ، وهو ما لا يفكر فيه الطبيب الفرنسي ... الذي كان يفكر اولاً وقبل كل شيء في الربح والراحة .

من أجل هذا أصبح الحصول على خبير للثورة الاشتراكية ، يفهم هذه الثورة ويقتنع بها .. اصبح هذا الأمر معتمداً على تعريب الجزائر .

ولذلك — كما يقول بن بيللا حقاً : لا اشتراكية بدون تعريب .

ونعود اخيراً للنقطة الاساسية في موضوع التعريب وهو قول المتفرنسين ان اللغة العربية هي لغة القرون الوسطى وان اللغة الفرنسية هي لغة القرن العشرين .

ان هذه النقطة طبعاً تقوم على مغالطة من اكبر المغالطات التي عرفها تاريخ الاستعمار . فمن الناحية النظرية لا توجد

هناك لغة متخلفة من حيث الاساس ، وانما هناك شعب متخلف وشعب متحضر ، والشعوب المتخلفة تعكس نفسها عـــلى اللغة فتضعف وتنهار ، والشعوب المتقدمة تعكس نفسها ايضاً على اللغة فتصبح قوية تعكس — بوضوح — قوة الشعب .

لقد كانت اللغة الصينية مثلاً قبل ثـــورة الصين لغة متخلفة ، ولكنهـــا تحولت الآن الى لغة حية يستخدمها الصينيون في احدث العلوم .

وهناك مثال من اعدائنا قريب الينا هـــو مثال اللغة العبرية ، لقد كانت هذه اللغة ميتة ولم تكن ضعيفة فقط ، كانت لغة لا يستخدمها احد من ابناء الشعوب المتحضرة ولا ابناء الشعوب المتخلفة .

ولكن إسرائيل استطاعت ان تضع برنامجاً قوياً حاسماً لاعادة هذه اللغة الى الحياة ، واليهود الآن يكتبون الأدب والعلوم الحديثة باللغة العبرية ، لقد قامت اللغة العبرية من قبرها ، ومشت على اقدامها ... بعد أن ماتت و (شبعت موتاً) كما يقولون .

وفي معظم اللغات التي تمت إبادتها كانت هذه الإبادة تعود بالدرجة الاولى الى ضعف الشعوب المتكلمة بهذه اللغة مثل (الهنود الحمر) .. لقد كان هؤلاء غير قابلين أصلاً للحياة المتحضرة بسبب شدة تخلفهم وانفصالهم عن الحضارة الانسانية قروناً طويلة جداً .

هذا من الناحية النظرية ، اما من الناحية العملية الواقعية فاننا نجـد أن اللغة العربية كانت في الماضي لغة حضارة كبيرة ، وهي حضارة اعترف بها الأوروبيون انفسهم لأنها تخطت حدود الشرق الى اوروبا عن طريق تركيا أو عن طريق اسبانيا ، ولقد كانت اللغة العربية في ايام الامبراطورية العربية الواسعة هي أعظم لغة في العالم وأكثرها حياة في ذلك العصر ، ولم تتخلف اللغة العربية عن اداء وظيفتها الحضارية في تلك الفترة المزدهرة .

ثم جاء عصر الظلام — في ظل الاستعمار العثماني والاستعمار الغربي من بعده — فانحطت الحضارة العربية وتجمدت معها اللغة العربية .

وفي العصر الحديث بدأت الامور تتغير ... أصبحت اللغة العربية لغة من لغات الحضارة ، والمثال الواضح على ذلك هو مصر ... اننا في مصر نستخدم اللغة العربية دون أن نشعر انها تعوقنا عن أن نكون عصريين ، او تعوقنا عن فهم الحضارة العلمية والاستفادة منها ، وحديثنا بالعربية لا يجعل منا رجعيين نعيش على الخرافة وعلى أفكار العصور الوسطى ، بل اننا نأخـذ بأساليب الحياة العصرية بسرعة وبدون عوائق .

ولقد ادركت الثورة الجزائرية كل هذه الحقائق وسجلتها في برنامج طرابلس وهو ميثاق الثورة الجزائرية .

يقول هذا البرنامج حول هذه النقطة الهامة « ان اللغة

ظاهرة اجتماعية خلقتها المجتمعات لتكون وسيلتها الى التفاهم وأداتها في تجسيم تفكيرها ونفسيتها ، ولذلك فان أي ركود يصيب المجتمع تنعكس آثاره على اللغة ، ومجتمعنا الجزائري قد اصيب في الصميم وتعرض لعملية تعقيم ذهني بحيث اصبح الانسان العربي في الجزائر انساناً غير منتج فكرياً ، وأصبحت اللغة القومية في الجزائر لغة عاجزة عن تلبية حاجات العصر لأن المتكلمين بها حرموا من بناء حياتهم بانفسهم » .

ثم يحدد البرنامج طبيعة الثقافة العربية الجديدة — وهو بذلك يرد على القائلين بأن العودة الى العربية معناها العودة الى الرجعية الفكرية والحياة في القرون الوسطى .

يقول البرنامج :

« إنه لا يكفي أن تكون ثقافتنا ثقافة قومية فحسب ، بل يجب ان تكون هذه الثقافة ثورية في أهدافها ، فالغايات الرئيسية لثقافتنا الجديدة هي تخليص الشعب من أساليب التفكير الرجعي ومن الخرافات والاساطير ، ومن النظرة السطحية والتقليد الأعمى والتحجر العقلي . فهذه الطرق الخاطئة في التفكير تعتبر من الرواسب الاقطاعية » .

وفي جزء آخر يقول برنامج طرابلس :

« مما لا جدال فيه أن لغتنا القومية قد عانت تخلفاً كبيراً كأداة للثقافة ، غير أن هذا التخلف ليس ناتجاً عن قصور في ذات اللغة العربية ، ولكنه راجع الى السيطرة الاستعمارية

التي تعرضت لها بلادنا ، فالمطلوب اذن بالحاح هو أن نطورها وفقاً لخطة منهجية مدروسة . ولكي تؤتي هذه الخطة ثمارها يجب أن تعم اللغة العربية على جميع المستويات ، وان نجعل منها لغة الحياة اليومية والتعامل ، لغة المدرسة والادارة ولغة المصنع ، كما هي لغة الجبل والمزرعة والبيت ، يجب أن تكون لغة اهل المدينة كما هي لغة اهل القرية ، وهذا لا يتعارض مطلقاً مع ضرورة ترقيتها بالوسائل العلمية حتى تتسع لاستيعاب المعارف الحديثة وتستكمل القدرة على التعبير عنها » .

ولكن الذين يهاجمون اللغة العربية في الجزائر يحاولون التلميح — الذي يكاد يكون تصريحاً — الى أن العودة الى اللغة العربية يعني العودة إلى الإسلام ، وهذا في نظرهم خطر كبير .

وهنا يرد برنامج طرابلس على هذه المشكلة رداً علمياً يكشف على نوع فهم الجزائريين للاسلام :

« صحيح اننا ننتمي الى الحضارة الاسلامية التي طبعت تاريخ الانسانية كلها ، إلا أننا إذا اقتصرنا على الاعتقاد بأن الاسلام هو مجرد مظاهر ، ومجرد صيغ شكلية تتمثل في إقامة الشعائر الدينية وكفى ، فاننا بذلك ننقص من مكانة الحضارة الإسلامية ، وننزل بقدرها الى مستوى هي أعلى منه بكثير . ان المفهوم الصحيح للأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية تتجسد في ذلك البناء العملي للمجتمع

الاسلامي الذي تواصل زمناً طويلاً على الصعيد المادي والأدبي ، على صعيد العمل والفكر والاقتصاد والثقافة ، وقد خلقت روح الاجتهاد والبحث والانفتاح العقلي على مختلف ألوان الفكر الاجنبي ... خلقت هذه الروح تفاعلاً ايجابياً بين الحضارة الاسلامية وبين الحضارات الاخرى ، كالحضارة اليونانية ، والحضارة الفارسية ، والحضارة الهندية » .

وبهذا يرد الجزائريون على الذين يحاولون أن يستغلوا (الاسلام) لاتهامهم بالرجعية والتحجر .

وبهذا الفهم العميق والعلمي يواجه الجزائريون المستقبل ... ويواجهون أصعب مشكلة تقف في طريقهم اليوم وهي مشكلة التعريب خاصة أمام المعارضة العنيفة القائمة في صفوف المتفرنسين الجزائريين .

ولكي نتصور مدى تعقيد مشكلة التعريب في الجزائر .. يكفي ان نقول ان برنامج طرابلس الذي يدافع عن التعريب وينادي به قد كتبت النسخة الاصلية منه بالفرنسية .

ولكن الصعوبة في المشكلة لا تنفي تصميم الثورة الجزائرية بقيادة بن بللا على تعريب الجزائر .

وليس هناك من انصار التعريب في الجزائر أو خارجها من ينادي بقطع العلاقات الثقافية بفرنسا ، والامتناع نهائياً عن القراءة بالفرنسية او التفاعل مع الفكر الفرنسي ... على العكس ، فإن التفاعل بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية

سوف يساعد على جعل الثقافة العربية الجديدة في الجزائر ثقافة عصرية .

وليس هناك ايضاً من يقول ان من الضروري تدريس كل العلوم العصرية باللغة العربية حتى لو كان هذا أمراً صعباً ... فما زلنا نحن في مصر ندرس بعض العلوم في الطب والهندسة باللغة الانجليزية ، ولا يترك هذا اي تأثير على لغتنا العربية ، لأن المسألة محصورة في العلوم (التكنيكية) وفي الدراسات الأساسية لهذه العلوم ، والتي تكاد اصطلاحاتها أن تكون اصطلاحات عالمية واحدة .

وليس هناك من يقول أيضاً بنسيان اللغة الفرنسية نهائياً في الجزائر ، فان هـذه اللغة عندما يستخدمها العرب الجزائريون كلغة ثانية بعد العربية تؤدي خدمات هامة ... على رأسها تقوية الصلة بين الجزائر وبين البلاد الافريقية الاخرى التي لا تعرف غير الفرنسية ، والتي تتطلع الى الجزائر الآن كمثل ثوري أعلى ، وقد ساعدت اللغة الفرنسية على تدعيم مركز الجزائر في دول أفريقيـا ... حيث تلعب الجزائر الآن دوراً رائعاً في مواجهة الاستعمار الغربي من ناحية وفي مواجهة إسرائيل التي تريـد أن تكسب منطقة نفوذ لها في قلب افريقيا .

وأخيراً فليس هناك من يقول ان العودة الى اللغة العربية معناه العودة الى عصور الظلام في الحياة العربية والثقافة العربية ... فهـذه العصور المظلمة فرضها علينا الاستعمار

العثماني ثم الاستعمار الغربي من بعده .

إن العودة الى اللغة العربية ... هي عودة الى الشخصية القومية التي أراد الفرنسيون طمسها في الجزائر ، وشخصيتنا القومية تولد اليوم في البلاد العربية المتحررة — وفي مقدمتها مصر والجزائر — ميلاداً ثورياً اشتراكياً لا يتردد في خطه الثوري الاشتراكي ، ولا يمكن ان يعود الى الصور القديمة الرجعية في الحياة أو الفكر .

ولذلك — رغم المصاعب كلها — فإن تعريب الجزائر سوف ينجح وينتصر . فاللغة العربية كانت لغة المحاربين في الجبال ، ويجب ان تكون اليوم لغة الجزائر الجديدة .

إن النشيد الذي يردده الثوريون في الجزائر ، والذي يرهبه المتفرنسون هو كلمة بن بللا وصرخته الصريحة :

« نحن عرب . نحن عرب . نحن عرب »

إن هذه الصرخة هي النشيد القومي الذي يردده ابناء الشعب ... ولن يستطيع احد أن يقف في وجه هذا النشيد . لأن الشعب الذي يردده هو الشعب الذي انتصر بالأمس في معركة الجوع والموت . وهو اليوم يستطيع ان ينتصر في معركة الحياة .

رجاء النقاش

الجزائر - 1962